

الباب الأول

طراز العصر الأموي (٤١ - ١٣٢ هـ) (٦٦١ - ٧٤٩ م)

نشأ نزاع بين طائفتين من المسلمين بعد انتهاء فترة حكم الخلفاء الراشدين على من هو أحق بتولى الخلافة الإسلامية ، فطائفة الشيعة كانوا يرون قصر الخلافة على ذرية علي ، وأهل السنة كانوا يرون جعل الخلافة بالانتخاب من بين أفراد قبيلة قريش . وانتهى الأمر بانتصار فريق أهل السنة ، وفاز بالخلافة معاوية بن أبي سفيان وإلى الشام الذي ينتمي إلى أسرة بني أمية التي تنتسب إلى قبيلة قريش . وكان معاوية قوى البأس ، أسس أول أسرة عربية حكمت العالم الإسلامي بنظام الوراثة لمدة تقرب من ٨٩ عاماً .

نقل معاوية مركز الخلافة الإسلامية من الكوفة إلى دمشق في عام ٤١ هـ - ٦٦١ م ، واتسعت الإمبراطورية الإسلامية في عهد بني أمية ، فامتدت غرباً إلى أسبانيا وشاطئ المحيط الأطلسي ، وشرقاً إلى شمال الهند وحدود الصين . وتميز عهد هذه الدولة بالرخاء وظهرت آثاره في البلاد المحكومة ، ولكن حكمها انتهى عقب اشتعال ثورة في إقليم خراسان شرق إيران قامت بها القبائل التي تؤيد المذهب الشيعي بتحريض من بني العباس . وانتهت هذه الثورة بتمكن زعيم بني العباس (عم النبي) من الاستيلاء على حكم الخلافة الإسلامية بعد قتل الحكام الأمويين ، ولم ينج من الموت إلا واحد من أمراءهم تمكن من الفرار إلى شمال أفريقيا في أول الأمر ، ثم انتقل إلى أسبانيا حيث استطاع تكوين دولة أموية غربية . ولقد كان اختيار الأمويين لمدينة دمشق كعاصمة للخلافة الإسلامية السبب الرئيسي في قيام الفن الإسلامي الأول وظهور الطراز الأموي وهو أولى مدارس الفن الإسلامي . وكان لهذه الفترة أثر عميق في تاريخ الإسلام ، حيث بدأ فيها اتصال الثقافة الإسلامية بحضارة الدولة الرومانية المسيحية البيزنطية الموجودة في سوريا ومصر ، وحضارة الفرس الموجودة في سوريا والعراق . وذلك لوقوع هذه البلاد وقت أن فتحتها العرب تحت حكم الدولة

الرومانية البيزنطية مما جعلها متأثرة بفنونها ، كما كانت آثارها تحتفظ بالكثير من عناصر الفنون الهيلينستية والرومانية الوثنية . ولصلة هذه البلاد بإيران في فترة الحكم الروماني كان يوجد بها أيضاً بعض أساليب الفن الساساني . وأصبحت اللغة العربية اللغة الرسمية في سوريا في حوالى عام ٨١ هـ - ٧٠٠ م ، وفي مصر في عام ٨٧ هـ - ٧٠٦ م وذلك في عهد خلافة عبد الملك بن مروان . واستخدمت أول عملة إسلامية في سوريا في عام ٧٧ هـ - ٦٩٦ م وكانت تنقش بعبارات دعائية وباسم الحاكم .

العمارة :

اتبع النبي محمد وخلفاؤه الأربعة الراشدون البساطة في العيش ، وكانت مساكنهم بسيطة استخدمت فيها الخامات البدائية ، كما اكتفوا بتشييد أماكن بسيطة للعبادة تفي فقط حاجة إقامة الشعائر الدينية . لذلك نجد أن تصميم أول مسجد إسلامي شيد في عهد النبي صلى الله عليه وسلم كان بسيطاً بدائى العمارة . فمسجد المدينة الذي كان ملحقاً بدار الرسول كان عبارة عن مساحة مربعة يحيط بها جدران من الطين والحجر ، ويغطي جزء من سقفه بسعف النخيل المغطى بطبقة من الطين ، ويرتكز هذا السقف على عدد من جذوع النخيل . وكان الغرض الأول من إقامته هو جمع المصلين في مكان واحد متسع ليقفوا صفوفاً في مواجهة الكعبة في مكة . وكان النبي يتجه قبل ذلك صوب بيت المقدس .

ولما امتدت فتوحات العرب إلى خارج شبه الجزيرة العربية ، استخدم المسلمون العرب بعض الكنائس التي وجدوها في سوريا كأمكنة للصلاة ، كما قاموا بتحويل بعض القصور الفارسية في إيران إلى مساجد بالرغم مما وجد بها من أشكال حيوانية^(١) أما في العراق ومصر فقام العرب بتأسيس مدن جديدة شيدوا فيها مساجد بسيطة ،

(١) ذكر أن تاج أعمدة مسجد الجمعة في مدينة استخر Persepolis كان على هيئة بقرة . كما عرف مسجد قزوين بمسجد الثور ، انظر كريزويل « موجز العمارة الإسلامية المبكرة » باللغة الإنجليزية ص ٨ (وكانت الأعمدة التي تنتهى برأس ثور معروفة في عمارة قصور الفرس الأكتيين) في مدينة برسيبوليس Persepolis انظر ش ٢١٥ كتابنا فنون الشرق الأوسط والعالم القديم . ولقد تميزت العمارة الدينية عادة في الفن الإسلامي بخلو زخارفها من العناصر الحية وذلك لكرهية الإسلام لها .

ففي جامع البصرة الذي شيد في (١٤٤ هـ - ٦٣٥ م) والكوفة المشيد في (١٧٥ هـ - ٦٣٨ م) اكتفى المسلمون بإحاطة قطعة الأرض بمخندق محفور بدلا من الجدران، وسقفوا جزءاً منها بالخشب والجريد، وكان يحمل السقف أعمدة من جذوع النخل أو من الأعمدة الحجرية التي جلبوها من الكنائس، أو من القصور القديمة التي وجدوها في إقليم الحيرة على حدود العراق، وكان يسكن هذه المنطقة عام ٤٥٠ م اللخميون الذين يدينون بالولاء للفرس، كما استقر ملوك « الغساسنة » الذين يدينون بالولاء للرومان على حدود سوريا حوالي ٥٠٠ م. ولقد تكرر هذا التصميم البسيط في جامع عمرو الذي شيد في مدينة الفسطاط الجديدة عام (٢٠٥ هـ - ٦٤١ م). واستخدم العرب هذه المساجد الأولى أيضاً كرسطات للجنود المسلمين^(١).

تغيرت نظرة الحكام المسلمين إلى الحياة بعد أن انتقلت الخلافة إلى بني أمية. فنجد أن بعض الخلفاء الأمويين بعد أن استقر حكمهم في دمشق ودانت لهم جميع بلاد الشرق الأوسط وشمال أفريقيا، انغمسوا في البذخ والترف^(٢)، كما اهتموا بتشديد العمائر الضخمة تشبهاً بمشيدات ملوك الفرس وحكام بيزنطة الفخمة، ولذلك يبدأ نشاط حركة المعمار في عصر الدولة الأموية. ومن أهم مظاهر هذا النشاط المعماري، مساجد فاخرة تتفق مع انتشار الدين الجديد، ولا تقل في فخامتها عن الكنائس البيزنطية. كما يشمل أيضاً القصور والمسكن التي أقامها الحكام والأمراء الأمويون لسكنائهم. ولقد استعان الأمويون في مشروعاتهم المعمارية بعمال سوريين مدربين، كما استقدموا أيضاً العمال والفنيين المهرة من مختلف أقطار الإمبراطورية الإسلامية. ولقد نتج عن ذلك ظهور أول طراز في تاريخ العمارة الإسلامية وهو الطراز الأموي. ولقد انتقل هذا الطراز إلى الولايات الواقعة تحت الحكم الأموي.

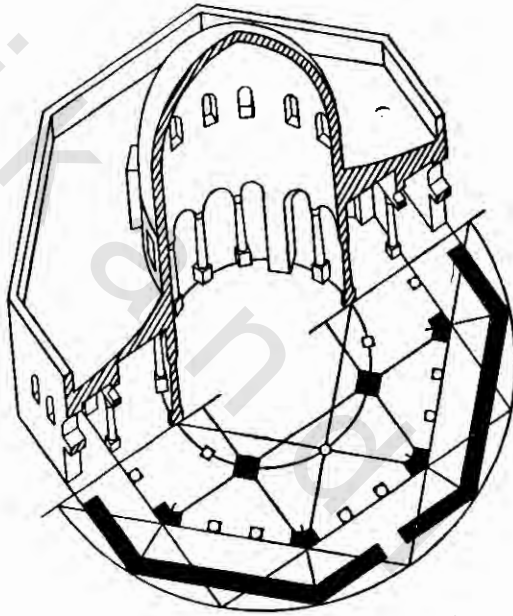
عمارة المساجد :

تطورت عمارة المساجد تطوراً كبيراً في عهد الأمويين بعد مشاهدتهم ما ببلاد الشام من عمائر مسيحية. ولقد ظهر هذا التغيير في فترة حكم الخليفة « عبد الملك »

(١) الرباط هو نوع من المشيدات كان يستخدم لإيواء المحاربين المسلمين الذين يدافعون عن الدين الجديد.

(٢) ابن الأثير ج ٥ ص ٧٢.

وازدهر في عهد خلفه « الوليد بن عبد الملك ». وتظهر من تلك الفترة مساجد فخمة لا تزال قائمة حتى الآن أهمها « قبة الصخرة » و « المسجد الأقصى » ببيت المقدس و « المسجد الأموي » بدمشق . كما أقيم في خارج الشام « جامع سيدى عقبة » في القيروان و « جامع الزيتونة » في تونس ، ولقد قام الحكام الأمويون بتجديد المساجد التي شيدت في عهد الخلفاء الراشدين وهي جامع المدينة وجامعا البصرة والكوفة بالعراق وجامع عمرو بمصر .



١ - تصميم مسجد قبة الصخرة بالقدس

شيد مسجد قبة الصخرة في عهد « عبد الملك بن مروان » في عام ٧٢ هـ - ٦٩١ م . وهو يتميز بتصميم فريد لم يعرف من قبل في عمارة المساجد الإسلامية ، كما لم يتكرر ظهوره مرة ثانية (تصميم ١) . ويمتاز هذا المسجد بجمال وفخامة زخارفه . ولقد جدد هذا المسجد عام ١٦٤ هـ - ٧٨٠ م . ويتكون هذا المسجد من بناء من الحجر مثنى الأضلاع (ش ١) ويقع بكل ضلع من أضلاعه الخارجية عقود مدببة تعلوها نوافذ ، ويتوسط الأضلاع المقابلة للجهات الأربع الأصلية من المثنى

أربعة أبواب . ويكسو الجزء الأسفل من الجدران الخارجية ألواح من الرخام ، أما الجزء الأعلى فكان مغطى بطبقة من الفسيفساء أزيلت في العصر العثماني في فترة حكم « سليمان القانوني » في عام ٩٥٠ هـ - ١٥٤٣ م ، واستبدل بها لوحات من القيشاني . ويتوسط المبنى الصخرة المقدسة التي ذكر أن النبي محمد ارتفع من فوقها إلى السماء ليلة الإسراء والمعراج^(١) . وتحيط بهذه الصخرة دائرة من الدعائم والأعمدة ، ويبلغ عدد الدعائم أربعاً ، ويقع بين كل دعائمين ثلاثة أعمدة . وتحمل هذه الدعائم واجهة أسطوانية مغطاة من الداخل بالفسيفساء قوام زخارفها فروع نباتية . ويوجد بهذه الأسطوانة ست عشرة نافذة مزخرفة بالقيشاني من الخارج ، وزخارف جصية بها زجاج ملون من الداخل . وترتكز على هذه الأسطوانة قبة خشبية مزدوجة الكسوة ، من الخارج مغطاة بطبقة من ألواح الرصاص ومن الداخل بطبقة من الجص المذهب ، ويفصل جدار المثلث الخارجي عن الجزء الدائري مثلث أوسط يتكون من دعائم يكسوها الرخام وستة عشر عموداً رخامياً ذات تيجان مختلفة الطراز . ويعلو هذه الدعائم والأعمدة عقود زينت جدرانها بطبقة من الفسيفساء قوام زخارفها عناصر نباتية . ولقد نتج عن تشييد هذا المثلث الداخلي وجود رواقين داخلي وخارجي . ويغطي هذين الرواقين سقف من الخشب مزدوج الكسوة . فن الخارج ألواح من الرصاص ومن الداخل ألواح خشبية منقوشة . ويوجد بقبة الصخرة محراب أملس غير مجوف ينسب إلى عبد الملك ، ومحراب آخر يعرف باسم قبة الأنبياء .

يتضح من دراسة تصميم هذا المسجد الذي يعتمد على رسم دائرة داخل مثلث أنه ابتكار جديد ظهر في تصميم المساجد الإسلامية . وربما كان وراء اختيار هذا التصميم ، رغبة عبد الملك في تشييد مبنى يحيط بالصخرة المقدسة ليصلح مزاراً للمسلمين ، يحجون إليه ويطوفون حول الصخرة يتبركون بها بدلا من الذهاب إلى مكة ووقوعهم تحت تأثير ابن الزبير وإلى مكة الذي خرج عن طاعة الأيوبيين لمدة تسع سنوات . ويظهر من دراسة هذا التصميم تأثير العمارة في فجر الإسلام بالأساليب الفنية التي كانت سائدة في بلاد الشام قبل دخول العرب بها . فتصميم المسجد مقتبس من تصميم بعض الكنائس التي كانت موجودة ببلاد الشام وإن اختلفت عنها في

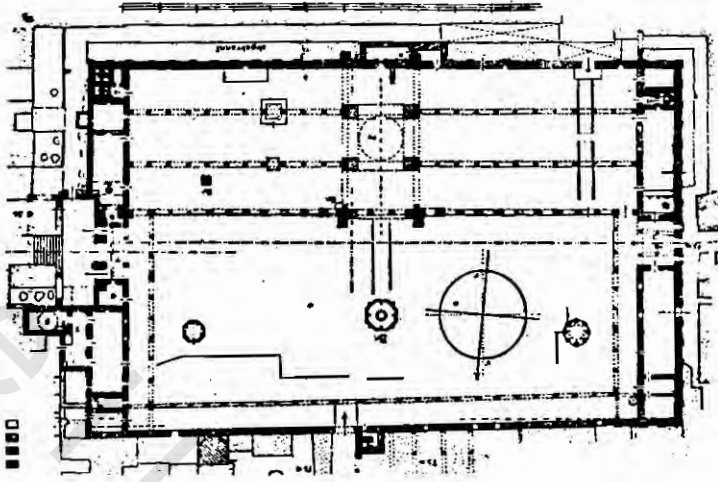
(١) ورد ذكر قصة الإسراء والمعراج في القرآن الكريم في الآية الأولى من سورة الإسراء .

التفصيل . فكنيسة القديس يوحنا في (جرش) بسوريا التي شيدت في عصر قسطنطين عبارة عن دائرة داخل مربع ، كما أن كنيسة الصعود الموجودة في جبل الزيتون في الأردن (القرن الرابع الميلادي) كان تصميمها عبارة عن مثلث داخله دائرة (ش ٢) تحيط بصخرة كان يقف عليها المسيح عندما صعد إلى السماء ^(١) . كما أن استخدام القباب كان معروفاً في بلاد الشام عندما فتحتها العرب حيث وجدوا بها كنائس ذات قباب خشبية . ويتضح أيضاً من الفسيفساء التي عثر عليها في مدينة مدابا « Madaba » بالأردن ، أن تصميم مدينة القدس كان دائرياً (ش ب) .

اهتم الوليد بن عبد الملك بتشييد مساجد بالشام عندما كثر عدد المسلمين بها ، وأهم هذه المساجد جامع دمشق الذي بدئ في تشييده في عام ٨٨ هـ - ٧٠٧ م وتم في ٩٦ هـ - ٧١٤ م . ولقد أقام الوليد هذا المسجد فوق أساسات كنيسة القديس يوحنا التي أمر بهدمها . وكان المسيحيون قد شيدوا هذه الكنيسة فوق أنقاض معبد وثني كانت له أبراج مربعة في أركانها . ولا يزال أحدها قائماً في الركن الجنوبي الغربي حيث أبقى المسلمون عليه واستخدموه للمناداة على الصلاة .

ويتكون هذا المسجد من مساحة مستطيلة يتوسطها صحن مستطيل مكشوف (تصميم ب) ويحيط به أربعة أروقة أكبرها رواق القبلة الذي يقع في الجهة الجنوبية وهو مكان العبادة . ويتكون رواق القبلة من ثلاث بلاطات طويلة موازية للجدار القبلة ، أما الأروقة الثلاثة فتتكون من بلاطة واحدة ، ويقع المدخل بالرواق الشمالي ، ويتعامد على منتصف رواق القبلة رواق قاطع ينتهي بالقبلة التي تتوسط الجدار الجنوبي . ويغطي منتصف هذا التقاطع قبة حجرية أضيفت في عصر متأخر ، ويقل ارتفاع سقف الأروقة الطولية عن الرواق القاطع . ويغطي هذه الأروقة سقف خشبي منحدر على هيئة جمالون . وتظهر بالجدران المحيطة بصحن الجامع عقود تشبه حدود الحصان محمولة على دعائم وأعمدة ، كما توجد بها أيضاً عقود مدببة الشكل (ش ٢) . ويعلو العقود صف من النوافذ لتخفيف الثقل عليها وهي مرسوعة بحيث يعلو كل عقد نافذتان . وكانت جدران المسجد الداخلية مغطاة بألواح من

(١) كريزويل ، مقابلة ص ٣٦ .



ب - تصميم المسجد الكبير بدمشق

المرمر من أسفل بارتفاع قامة الإنسان ، وبطبقة من الفسيفساء من أعلى ، ولقد بقي جزء منها في الرواق الغربي وقوام زخارفه رسوم لعمائر بين الأشجار والأنهار .

من الواضح أنه طرأ تغيير على تصميم الجامع الذي كان معروفاً قبل العصر الأموي . وأن مهندس الوليد قد اقتبس تصميمه من شكل الكنيسة المستطيل مع تصرف في بعض التفاصيل بطريقة عكسية . فتصميم الكنيسة يعتمد على أن المدخل المواجه للمكان المقدس يوجد في عرض المستطيل القصير ، في حين أن تصميم الجامع يعتمد على أن الضلعين اللذين يقع المدخل ومكان العبادة بهما أطول من الأضلاع الأخرى . كما أن أقواس الأروقة القائمة على الأعمدة توازي حائط القبلة في الجامع بدلا من تعامدها معه في الكنيسة . ويلائم هذا التصميم المصلين الذين يقفون في صفوف طويلة موازية لجدار القبلة .

ولقد تأثرت مساجد بعض الأقطار الإسلامية التي شيدت في العهد الأموي بهذا التصميم . فيظهر نموذج المسجد المستطيل ذو الصحن المكشوف في مسجد حلب بسوريا ، وجامع الزيتونة بتونس ومسجد سيدي عقبة بالقيروان . كما ظهرت منه نماذج في المساجد الملحقة بالقصور التي شيدها الأمراء الأمويون ، ويمكن القول أنه أصبح الشكل التقليدي للمساجد الإسلامية . ويذكرنا .

واجهة الرواق الجنوبي الأجنبي في هذا المسجد أيضاً بواجهته القصور البيزنطية المرسومة على زخارف التفسيرية التي تغطي جدار كنيسة بمدينة رافينا (ش ج) .

ولقد دخلت في عصر الأمويين عناصر معمارية جديدة لم تكن معروفة من قبل في العمارة الدينية الإسلامية ، حيث ذكر أن معاوية أمر « مسلمة » واليه على مصر بتشيد صوامع للمناداة على الصلاة في أركان جامع عمرو^(١) ، ويعد ذلك أول مرة يأتي فيها ذكر المآذن في تاريخ العمارة الإسلامية . ولم تكن المآذن معروفة من قبل العصر الأموي ، وربما اقتبست فكرتها من الأبراج التي كانت ملحقة بأماكن العبادة بسوريا ، ولقد انتقلت فكرتها إلى مصر في فترة حكم معاوية . ومن العناصر المعمارية التي أدخلها الأمويون أيضاً في عمارة المساجد ، المحراب المحفور المقتبس من حنية الكنيسة^(٢) ، والمئبر الذي كان معروفاً في الكنائس المسيحية واستخدم في مصر منذ عصر عمرو بن العاص^(٣) . كما ذكر أن أول مقصورة شيدت بجانب المحراب كانت للخليفة معاوية^(٤) .

عمارة القصور :

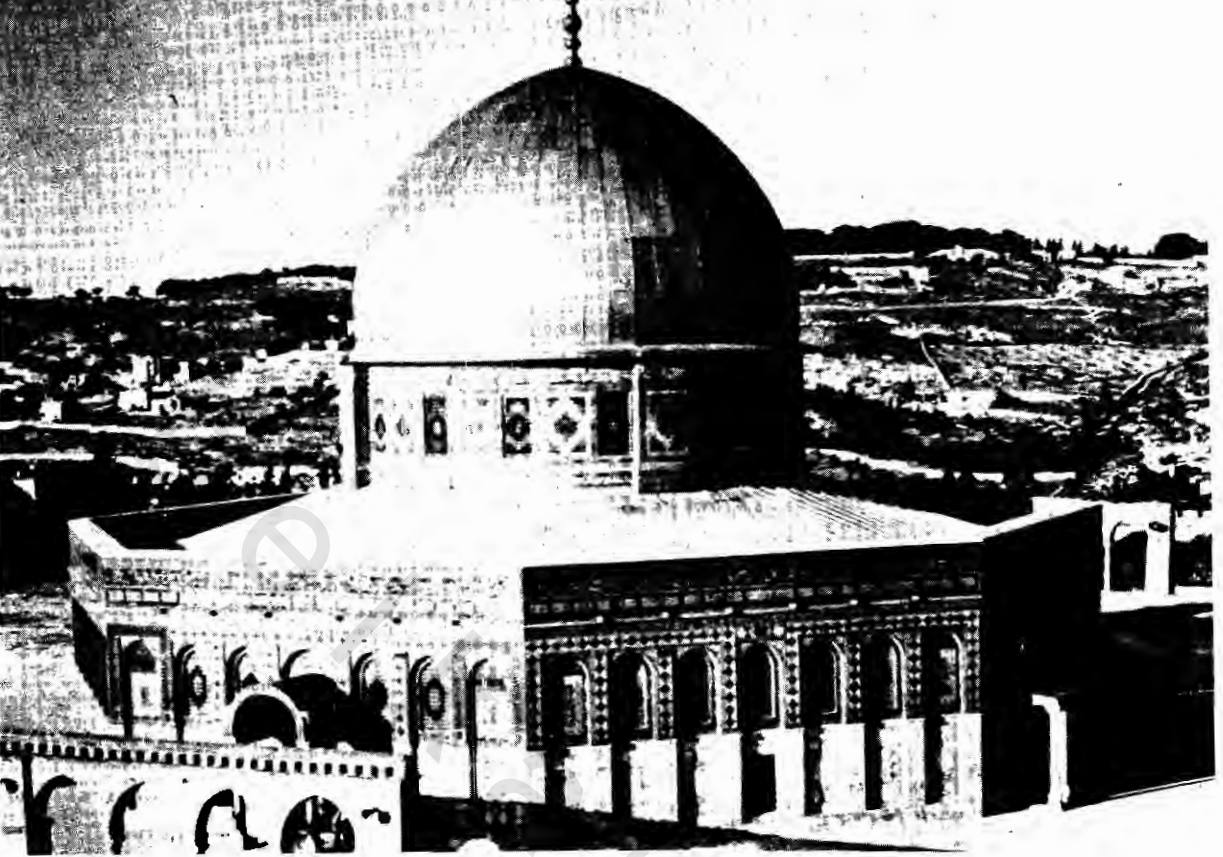
لم يعثر للآن على آثار لقصور الحكام الأمويين في العاصمة دمشق ، وتقتصر معرفتنا لعمارة القصور الأموية على بعض قصور متفرقة في صحراء سوريا وشرق الأردن كان الحكام يقيمون فيها بعض الوقت للاستجمام . كذلك شيدوا قصوراً صغيرة يأوون إليها كاستراحات عندما يخرجون للصيد . ولقد استخدم الحكام الأمويون القصور الرومانية المخربة الواقعة على حافة البادية وعلى طريق الصحراء بعد ترميمها . فرم يزيد بن عبد الملك قصر الموقر وجعله مركزاً لقصور البادية .

(١) أمر معاوية واليه على مصر في عام ٦٧٣ م بتشيد أربعة أبراج لجامع عمرو (مقرى الخطط والآثار طبعه بولاق جزء ثان ص ٢٧٠) .

(٢) يرجح أن أقباط مصر الذين كانوا ضمن من أمر بإرساله الوليد من أنحاء الإمبراطورية لإعادة بناء مسجد المدينة قد نقلوا فكرة الحنية الموجودة في صدر الكنيسة إلى الجامع .

(٣) اتخذ عمرو بن العاص مئبراً في الجامع ولكن عمر بن الخطاب أنه وأمره بكسره ، وأن يتسارى مع المسلمين في الصلاة (مقرى ماقبله ج ٢ ص ٢٤٧) . كما ذكر أن مئبر جامع عمرو بن العاص نقل إليه من بعض كنائس مصر (مقرى ج ٢ ص ٢٤٧) .

(٤) كرزويل ماقبله ص ١١ .



(شكل ١)

مسجد قبة الصخرة من الخارج ،
بيت المقدس (٥٧٣ - ٦٩١ م) ،
العصر الأموي .

(شكل ٢)

صحن جامع دمشق الأموي ، بني في
تشييده عام ٥٨٨ - ٧٠٧ م .



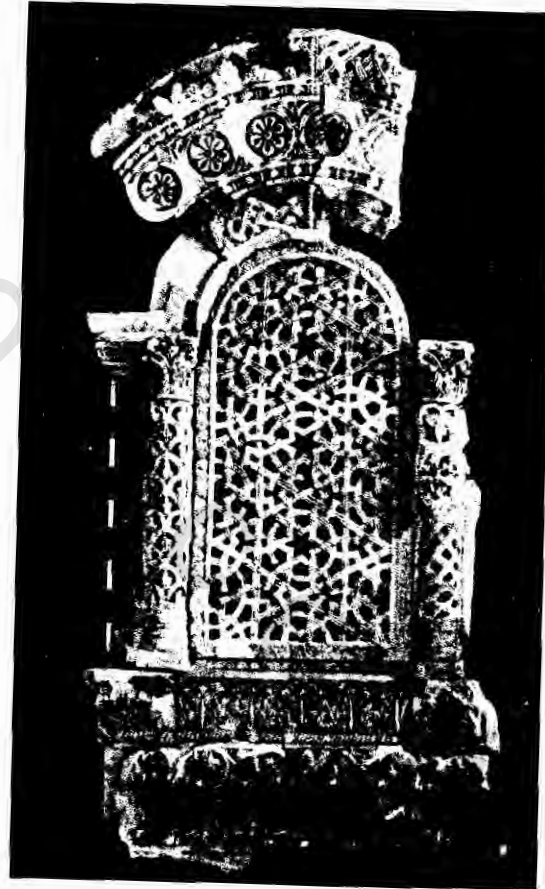
(شكل ٣)

زخارف من القسيفاء ، حمام
خربة المفجر شمال أريحا بالأردن
أوائل القرن ٥ ، ٨ ، م ، أ
الأموي .



(شكل ٥)

تمثال صغير لحارية نصف عارية
وجدت بوابه حمام قصر المفجر ،
متحف عمان .



(شكل ٤)

زخارف جصية من قصر خربة المفجر
أشكال هندسية ونباتية .

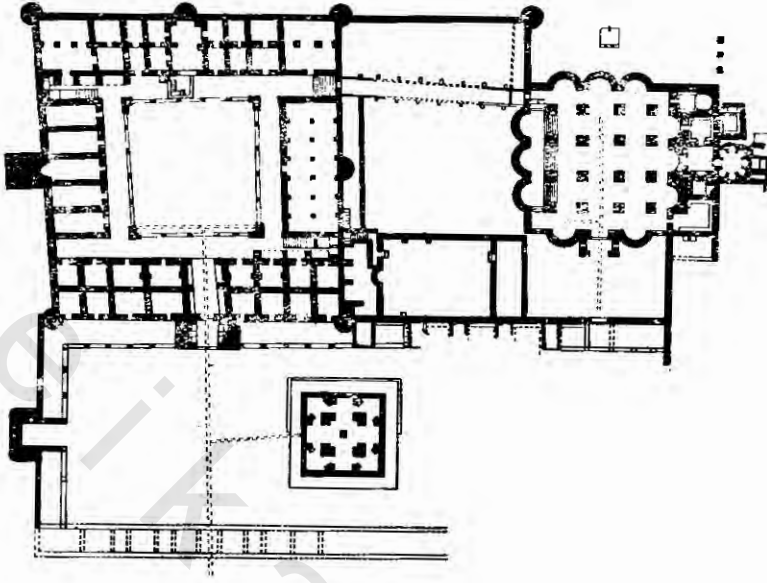
وقد أراد الأمويون بالجمع بين حضارة سكان المدن وترف أهلها وجههم للبادية، فاقبضوا في هندسة هذه القصور الموجودة بالصحراء من كل ما وقع تحت أيديهم من مشيدات حضرية . فأحاطوا هذه القصور بأسوار منيعة تشبه أسوار القلاع الرومانية، مع اختلاف بسيط في بعض التفاصيل، فالقلاع الرومانية محصنة بأبراج مربعة الشكل على حين تأخذ أبراج الأمويين الشكل الأسطواني . كذلك اقتبسوا الكثير من العناصر المعمارية الموجودة في الأديرة البيزنطية ، ثم أضافوا إليها الكثير من الأساليب المعمارية والزخارف التي عرفت في قصور الفرس .

شيد الأمويون قصرى الحير الشرقى والحير الغربى بجوار مدينة تلمر - واستخدم الآجر في كلاهما على أساس من الحجارة المنحوتة - أما باقى القصور الأموية وهى قصور المشتى والطوبة شيذا على الضفة الشرقية من نهر الأردن، والمفجر بالضفة الغربية منه ، وقصر المنية بالقرب من بحيرة طبرية ، وهى مشيدة جميعها بالحجارة ، وتتميز بكبر حجمها ومتانة جدرانها ، كما توافرت فيها وسائل الراحة والرفاهية ، من حمامات مزودة بغرف الاستحمام بالماء البارد والساخن . وهكذا أصبحت البادية عامرة بهذه القصور الفخمة ، ويشترك معظم هذه القصور فى تصميم واحد تقريباً لا يختلف إلا فى التفاصيل .

ويعد **قصر خربة المفجر** من أهم القصور الأموية ، وهو يبعد حوالى خمسة كيلومترات شمال أريحا . ولقد كشف عنه العالمان بارماك « D.C. Baramak » وهملتون « R.W. Hamilton » فى المدة ما بين عامى ١٩٣٠ م - ١٩٤٨ م . ويرجح نسبة هذا القصر إلى حكم هشام بن عبد الملك ^(١) (١٠٥ هـ - ١٢٥ هـ) (٧٢٤ م - ٧٤٣ م) . ويتميز هذا القصر بعظم اتساعه ، وبالرغم من أنه يشتمل على أكثر عناصر تصميم القصور الأموية إلا أنه ينفرد بأساليب معمارية فنية لا يوجد لها مثيل فى سائر القصور السابقة (تصميم ج) .

يحتوى هذا القصر على ثلاثة أبنية ضخمة : ١- مبنى للسكن ويشمل قاعة للبلات وغرف الإدارة وغرف الحريم ويتوسطها فناء مكشوف ، ٢- مسجد للصلاة ، ٣- الحمام الخاص بالخليفة وحاشيته ، ويقع فى الجهة الشرقية من مبنى السكن ويفصله عنه

(١) عثرت البعثة فى أثناء الحفر خارج السور على قطعتين من الرخام كتب عليها اسم « عبدالله هشام أمير المؤمنين » .. إلخ



ج - تصميم قصر خربة المفجر

فناء مربع مكشوف . ولقد أقيمت هذه المباني على جانب فناء أمامي مستطيل الشكل يربط هذه الأبنية بعضها ببعض ويبلغ طوله ٣٠٦ أمتار وعرضه ٤٠ متراً . ويحيط بالفناء أروقة ذات أقواس ومدخله من الجهة الجنوبية منه ، كما توجد فيه بركة تتوسطها نافورة ومن حولها نماذج من الحصن والحجارة لطيور مختلفة وحيرانات ، ويعلو النافورة قبة صغيرة محاطة بمئذنين ، وتحمل القبة والمئذنين أقواس ترتكز على أعمدة ضخمة . ويذكرنا هذا التصميم بمبنى قبة الصخرة .

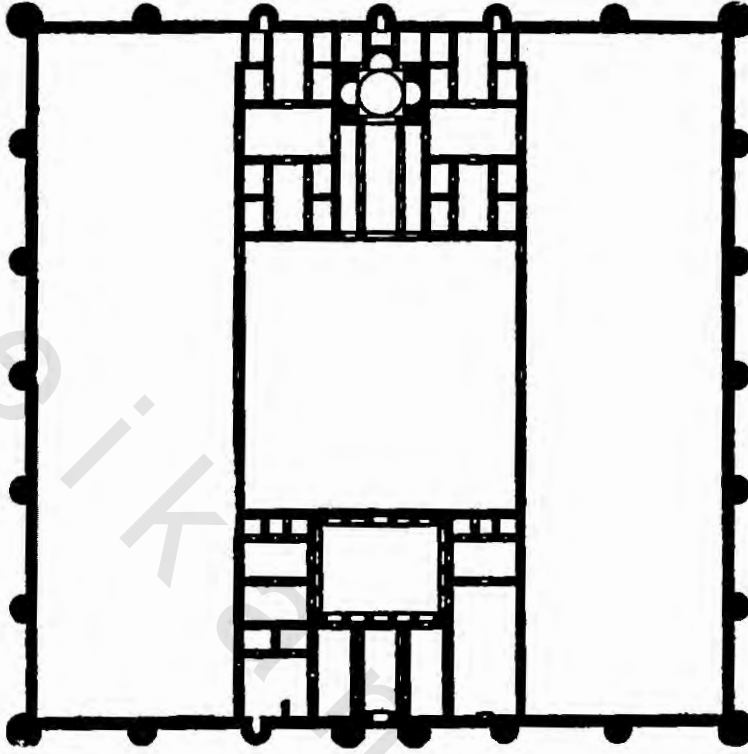
ويتميز هذا القصر بوجود حمام آخر كبير خارجه أعد خصيصاً لهشام وحاشيته ، ويتميز بكبر حجمه وبكثرة القباب الموجودة بسقفه . ويتكون مبنى هذا الحمام من إيوان مربع مزود بثلاثة محاريب كبيرة في كل من جوانبه الأربعة ، وتغطي أرض هذه المحاريب طبقة من الفسيفساء المزخرف ، ويتكون سقف هذا الإيوان من قباب وعقود على ارتفاعات متفاوتة وتحملها أقواس كبيرة ترتكز على ١٦ عموداً ، وتقع بالجهة الجنوبية للحمام بركة للاستحمام . كما يلحق بالركن الشمالي الغربي للحمام إيوان صغير ذو قبة يرجع من جمال زخارفه أنه كان مخصصاً لجلسات الأمير

الخاصة . ويوجد بجدران هذا الإيوان زخارف جصية بارزة لوحداث حيوانية وطيور ، وتغطي أرضيته زخارف تجريدية من الفسيفساء تشابه زخارف أرضية الحمام . ويوجد في الجدار المواجه للدخل الإيوان ، باب يؤدي إلى غرفة يأوى إليها الخليفة إذا ما فرغ من الحمام ، ويوجد بالقسم الخلفي لها غرفة صغيرة على شكل حنية كسيت أرضيتها بالفسيفساء الجميلة المزخرفة برسوم تمثل شجرة رمان أو نارنج مورقة يقف على جانب منها زوج من الغزلان يرعيان العشب الأخضر ، وعلى الجانب الآخر أسد ينقض على غزال ثالث ، وتبدو زخارف هذه الأرضية وكأنها سجادة (ش ٣) ، ولقد استطاع الفنان بمهارة توضيح الاستدارة والعمق في عناصره النباتية والحيوانية باستخدام ألوان فاتحة وقائمة في الفسيفساء ، وتزين جدران هذه الغرفة ونوافذها زخارف من الجص البارز بأشكال نباتية وهندسية (ش ٤) وأخرى لطيور وحيوانات حقيقية وخرافية وراقصات نصف عاريات ، كما زخرفت الأسقف فوق الأبواب بالجص المفرغ . وتقع بالجهة الشمالية للحمام غرف عديدة مجهزة بما يلزم الاستحمام من الماء الدافئ والهواء الساخن وأخرى لمسح الجسد بالزيت . وبوابة هذا الحمام هي صورة مصغرة للدخل القصر إلا أنها أكثر منه زخرفة . فيعلو مدخلها قبة صغيرة مزخرفة بخنثات وفي كل حنية منها تمثال جارية نصف عارية (ش ٥) ورجل يرتدى إزاراً ، كما يوجد فوق المدخل تمثال رجل واقفاً على منصة يحملها أسدان متدبران ربما يمثل الخليفة نفسه . وتصميم مسجد هذا القصر مقتبس من الجامع الأموي بدمشق .

ويلاحظ في عمارة هذا القصر التأثير بالعناصر الهندسية التي كانت معروفة قبل العهد الإسلامي ، فالسور المحصن والبوابات المدعمة بأبراج المراقبة كانت معروفة عند الرومان ، كما أن وسائل الرفاهية الموجودة في الحمامات كانت مقتبسة أيضاً من الحمامات الرومانية .

وبينما تشابه معظم القصور الأموية مع تصميم خربة المفجر نجد أن قصر المشتى ينفرد بتصميم خاص مستمد من القلاع الرومانية وقصور ملوك العرب قبل الإسلام .

ويقع قصر المشتى في الصحراء الأردنية ، ويبعد حوالي ٣٢ كم جنوبي عمان . ولقد قام جدل كبير بين العلماء حول عروبة هذا القصر ونسبته إلى العصر الأموي



د - تصميم قصر المشتى

أو إلى عصر ما قبل الإسلام^(١). كذلك اختلف مؤرخو الفنون في معرفة صاحب هذا القصر، فنسب أولاً إلى يزيد بن عبد الملك (١٠١ - ١٠٥ هـ) (٧٢٠ - ٧٢٤ م) لتشابه بعض عناصره المعمارية مع عمارة العصر الأموي الأول، كما تتشابه زخارفه مع زخارف قبة الصخرة. ولكن أثبت بعض العلماء بالبرهان نسبة تشييد هذا القصر إلى الوليد الثاني في الفترة (١٢٥ - ١٢٦ هـ) (٧٤٣ - ٧٤٤ م)، أى أنه يعاصر قصر الطوبة الذى شيّد في أواخر العصر الأموي^(٢). ويرجع الفضل في اكتشاف هذا القصر إلى الأستاذ لايارد «Layard» في عام ١٨٤٠ م وقام بدراسته بعد ذلك الأستاذ تريستان «Tristan» في عام ١٨٧٢ م.

(١) نسب هذا القصر إلى ملوك اللخمين ثم إلى ملوك الفساسة كذلك نسب إلى ملوك الساسان وقت حكمهم لهذه المنطقة (٦١٠ - ٦٢٣ هـ) كريزويل ماقبله ص ١٣٨ - ١٣٩.

(٢) اشترك في الوصول إلى هذه النتائج الأساتذة رولنس وموزيل ولانمس، كريزويل ماقبله ص ١٨٣ - ١٤٤.

وقد صمم هذا القصر على قطعة مربعة الشكل يحيط بها سور محصن بأبراج نصف دائرية . ويبلغ طول ضلعه ١٤٤ متراً ، وتوجد بأركان السور الأربعة أبراج مستديرة ، ويقع المدخل بالجهة الجنوبية ويكتنفه برجان على شكل نصفي مثنين (تصميم د) .

ولقد قسمت المساحة المربعة إلى ثلاثة أقسام متساوية ، وتقع المباني في الجزء الأوسط من المسطح ، أما القسمان الجانبيان فلم تشيد فيهما مبان ، وينقسم الجزء المبني إلى ثلاثة أقسام : المباني الأمامية وتقع في الجزء الجنوبي الذي يوجد به المدخل ، ومباني القصر الرئيسية وتقع في الجهة الشمالية ، ويفصل بين المبنيين فناء كبير مربع ، ويؤدي مدخل القصر إلى قاعة مستطيلة توصل إلى بهو مربع ، ويحيط بقاعة المدخل والبهو حجرات جانبية . ويوجد بالقاعة التي توجد على يمين المدخل حنية بالجدار الجنوبي ، مما يدل على أنها كانت تستخدم كمسجد . أما المبنى الرئيسي فيتكون مدخله من قاعة مستطيلة مقسمة إلى ثلاثة أروقة على الطراز البازيليكي^(١) ، وتنتهي هذه الأروقة بقاعة العرش المزودة بثلاث حنايا كبيرة نصف دائرية ، ويحيط بالبهو البازيليكي وقاعة العرش من كل جانب مجموعة من الغرف يتوسطها فناء مستطيل . ويلاحظ أن جدران القصر الداخلية وأقبية قد شيدت بالآجر ، أما العقود والأركان فهي من الحجر . وترجع شهرة هذا القصر إلى الزخارف الجميلة المنقوشة على جدار واجهة المدخل الخارجى .

وبالإضافة إلى ما عثر عليه من قصور أموية واستراحات صيد بالصحراء السورية ، عثر أخيراً على بقايا مدينة أموية كاملة في « أنجار » على طريق سوريا - لبنان يتضح في آثارها التأثير بالعمارة الرومانية^(٢) .

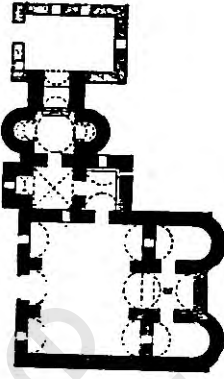
ويلاحظ أن تخطيط قاعة العرش في هذا القصر عرف في سوريا في عهد ما قبل الإسلام ، كما يتشابه نظام الغرف بأفنيةها مع قصور اللخمين ، والغساسنة في العراق والشام^(٣) .

(١) البازيليكا هي طراز من العمارات عرف في العصر الروماني وهو بناء مشيد على مساحة مستطيلة مقسمة إلى ثلاثة أقسام بواسطة صفين من الأعمدة ، يجتمع فيها الناس لعرض مشاكلهم على هيئة تحكم بينهم .

(٢) كاريل دى رى - Carrel J. Du Ry - Harry Abraham 1970 Art of Islam

New York ص ٢٠ .

(٣) كرزويل ما قبله ص ١٤٥ .



٥ - تصميم قصر عمرة

ومن قصور الصيد الأموية توجد عدة استراحات فخمة في بادية الشام ينسبها الباحثون إلى « الوليد بن عبد الملك » لما عرف عنه من ولعه بالصيد . ومن هذه القصور الصغيرة « قصر عمرة » ويبعد حوالى ٨٠ كم شرق عمان « وحمام الصرخ » و « قصر الحلبات » ويقعان شمال شرق عمان بحوالى ٤٠ كم ويتشابه تخطيط هذه القصور في التصميم الهندسى .

ويبعد « قصر عمرة » أهم قصور الصيد الأموية . ولم يتأكد للآن بصفة قاطعة نسبة هذا القصر الذى اكتشفه الأستاذ اليوس موزيل « Alios Musil » فى عام ١٨٩٨ م إلى الوليد الأول ^(١) . ويختلف تصميم هذا القصر الصغير (ش ٩) عن تصميم قصرى المفجر والمشنى فهو عبارة عن مبنى ذى طابق واحد مشيد بالحجارة ، وتتكون مبانى القصر من قسمين (تصميم هـ) ، قاعة الاستقبال وهى غرفة مستطيلة الشكل ، يتصدرها إيوان مغطى بسقف نصف دائرى يقع فى الجهة الجنوبية على محور المدخل . ويحف بهذا الإيوان إيوانان جانبيان توجد بمؤخرتهما غرفتان للنوم بهما نوافذ ، ويغضى كل من هذه الغرف أيضاً سقف نصف أسطوانى . والقسم الثانى وهو مبنى الحمام ، يحتوى على ثلاث غرف صغيرة ، الأولى للهواء البارد وسقفها مقبى نصف دائرى ومدخلها من قاعة الاستقبال ، والثانية الغرفة الدافئة ويتكون سقفها من قووين متقابلين ، والثالثة الغرفة الساخنة وتعلوها قبة نصف دائرية محمولة على أربعة مئذنتات . ويحتوى هذا الحمام على مغطس للماء البارد وآخر للماء الدافئ ، ويغضى أرضية الحمام بلاط من الرخام تمر من تحتها مواسير البخار الساخن . ويكسو جدران وسقف هذا الحمام تصاوير جدارية ملونة كما توجد بقاعة الاستقبال أيضاً صورتان ملونتان .

(١) استبعد الأستاذ ريتشارد إيتنجهاوزن فى كتابه «التصوير عند العرب» ص ٣٣ نسبة القصر إلى الوليد بن عبد الملك ورجح أنه شيد خصيصاً إما للوليد الثانى أو ليزيد الثالث عندما كانا أميرين فى عهد الخليفة هشام .

ويلاحظ في عمارة هذا المبنى التأثر بفنون ما قبل الإسلام ، حيث إن العقود العرضية التي تحمل الأقبية الطولية هي أسلوب ساساني أخذته العرب من إيران . كذلك كانت عمارة العقود والقباب معروفة في سوريا والعراق وإيران قبل الحكم الإسلامي ، كما كانت فكرة الحمامات الساخنة والباردة منقولة عن الحمامات الرومانية . وعلى العموم يلاحظ أن تخطيط هذا القصر مستمد من قصور الساسانيين ذات الإيوانات الموجودة في « المدائن » (تسيقون)^(١) . وترجع أهمية هذا القصر إلى مجموعة التصاوير الجدارية التي كان يحتويها ، ولقد دب التلف الآن إلى معظمها ولكن لحسن الحظ تمكن الرسام النمساوي ميليش « Meilish » من نقلها في عام ١٩٠١ م عندما كان بصحبة مكتشف القصر .

الزخارف المعمارية :

تعد صناعة الفسيفساء والزخارف الجصية والنقش على الحجر والخشب من الفنون المكتملة لفن المعمار ويستعين فيها المهندس بفئة من العمال المهرة لتكتملة عمله . ولقد استخدم الأمويون الكثير من الزخارف المعمارية التي كانت معروفة في سوريا قبل الإسلام ، فكسيت الجدران والأرضيات بالفسيفساء : كما أن النقوش الحجرية التي زخرفت العماائر الأموية كانت متأثرة بالفن البيزنطي . ولقد ظهر في العصر الأموي عنصر معماري زخرفي جديد لم يكن معروفاً من قبل في سوريا وهو تحلية الجدران بالزخارف الجصية .

زخارف الفسيفساء :

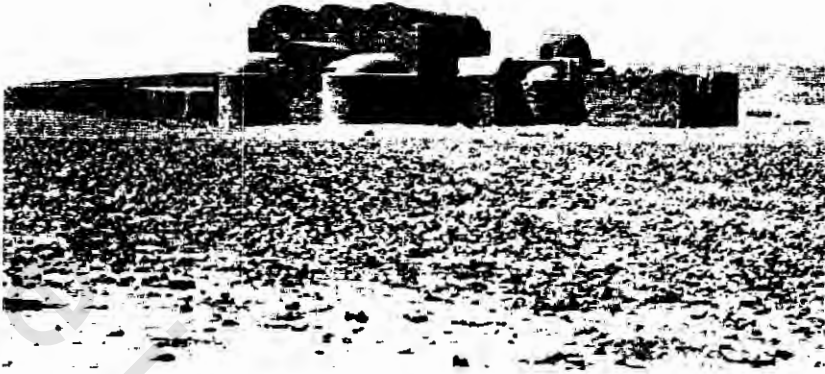
تتلخص صناعة الفسيفساء في تثبيت مجموعة من مكعبات الزجاج الملون والشفاف وقطع الحجر الأبيض والأسود فوق طبقة الجص أو الأسمنت التي تغطي السطح لتكوين موضوعات زخرفية . وكانت هذه الصناعة مزدهرة في العصر الإغريقي الروماني ، حيث انتشر استخدام الفسيفساء الحجرية في تحلية أرضيات المباني . كما استخدمت الفسيفساء الزجاجية في زخرفة الجدران في العصر البيزنطي . ولقد تدهورت هذه الصناعة في سوريا في أواخر العهد البيزنطي ولكنها ازدهرت ثانية في العصر الأموي ، ويشهد على ذلك ما تبقى من الآثار الأموية في سوريا . وقد

(١) انظر الموجه ٢٦٢ من كتابنا فنون الشرق الأوسط القديم ما قبله .

استخدم العرب عندما فتحوا سوريا التي كانت تحت الحكم البيزنطي ، العمال المحليين المتمرنين على القيام بالأعمال الفنية في عهد ما قبل الإسلام ، ولقد عثر على أجمل الأمثلة من زخارف الفسيفساء في مسجد قبة الصخرة وجامع دمشق وفي قصور خربة المفجر والمنية .

تعد زخارف قبة الصخرة أول وأقدم محاولة ظهرت في العصر الإسلامي لهذا النوع من الفن الزخرفي المعماري . وتغطي جدران المسجد عناصر زخرفية نباتية كثيرة ، نرى من بينها أشجار النخيل والصنوبر ، وأنواع الفاكهة مثل العنب والرمان ، وزخارف من نبات الأكانتاس . كما توجد بها أيضاً رسوم لأشجار محورة عن الطبيعة (ش ٧) . وبالإضافة إلى هذه الزخارف النباتية توجد رسوم لأوان تنخرج منها الفروع النباتية المتعرجة المتصلة . وتظهر بين هذه العناصر المتعددة رسوم الجواهر والحلي وقرون الرخاء بالإضافة إلى وحدات الأهلة والنجوم ، وكان الهلال معروفاً في بلاد الفرس في العصر الساساني ثم انتقل إلى زخارف بيزنطة . ونرى بين هذه الزخارف أيضاً أشكالاً تشبه الشمعدان تعلوها زخرفة مجنحة . ولقد استخدم الساسانيون هذه الأشكال المجنحة قبل ذلك ، ولكن المسلمين عندما اقتبسوها حوروا فيها وصارت عنصراً زخرفياً بحثاً لا معنى له . كما أن نبات الأكانتاس وورق العنب كانا أكثر العناصر الزخرفية شيوعاً في العصر المسيحي في سوريا ومصر . ونلاحظ على العموم أن أغلب التعبيرات الفنية التي وجدت في زخارف قبة الصخرة كانت مقتبسة من الفنون الإغريقية والبيزنطية مع عناصر من الفن الهيلينستي والساساني الذي انتقل إلى بلاد الشام وأقبل عليه الفنان السوري .

ويتضح تأثير الفن الأموي بالفن الهيلينستي في فسيفساء الجامع الأموي أكثر منه في قبة الصخرة . حيث نلاحظ أن قوام هذه الزخارف هي عبارة عن مناظر طبيعية تصور نهراً على ضفته أشجار ضخمة وعمائر مدنية بعضها كبير يتكون من عدة طوابق (ش ٨) ، وتحمل أسقف هذه العمائر أعمدة ذات طراز كورنثي . وبالإضافة إلى الزخارف السابقة ، توجد أيضاً زخارف من وحدات نبات الأكانتاس الذي ظهر في زخارف قبة الصخرة . ولقد فسرت هذه المناظر على أنها ربما تصور مدينة دمشق ، ومن المرجح أن العمال السوريين قد نقلوا فكرة رسم هذه المناظر في زخارف



(شكل ٦)

قصير عمره من الخارج ، صغراء
الأردن ، أوائل القرن ٨ م ، العصر
الأموي .



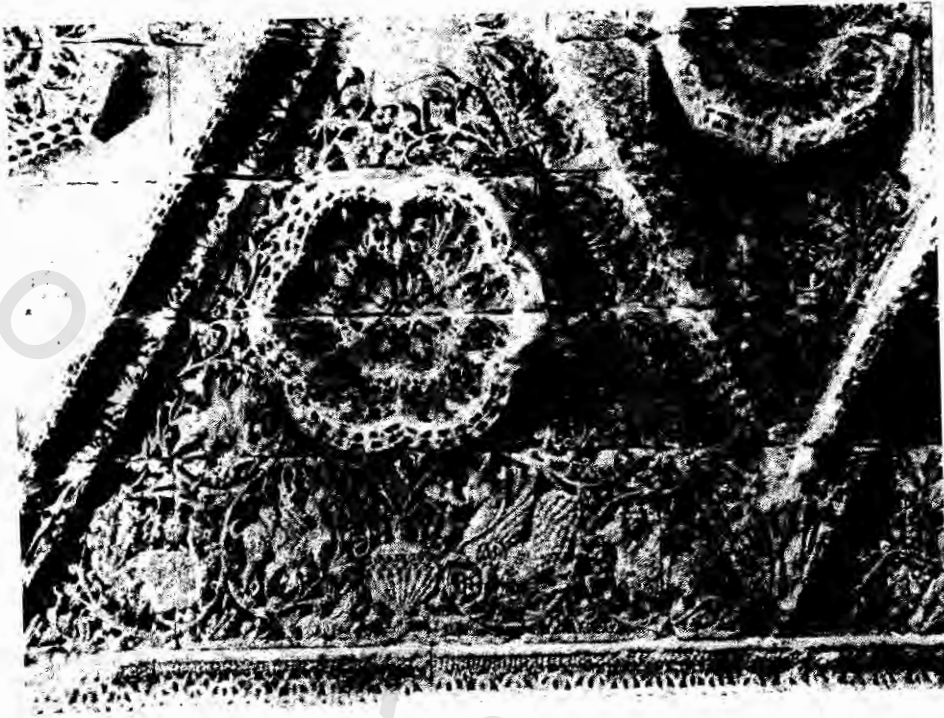
(شكل ٨)

زخارف فيفساء تغطي جدران الرواق
الغربي ، الجامع الأموي بدمشق .



(شكل ٧)

زخارف فيفساء تغطي عقود مسجد
قبة الصخرة .



(شكل ٩)

واجهة قصر المشتى الحجرى ، يسار
المدخل ، وكان يقع فى صحراء
الأردن ، العصر الأموى ، حالياً
بمتحف الدولة ببرلين .

(شكل ١٠)

تاج عمود به نقش كتابى باسم
عبد الله يزيد أمير المؤمنين ، العصر
الأموى ، حالياً بمتحف عمان .

(شكل ١١)

تصوير جدارى ، قصير عمره ،
الأردن ، أوائل القرن ٨ م (عن
موزيل) .



الفيسفساء من نماذج قديمة . حيث وجدت زخارف بها موضوعات مشابهة في فيسفساء كنيسة بروما شيدت في عهد الملك « جستينيان » مع اختلاف بسيط ، وهو أن المناظر في الكنيسة الغربية رسمت كخلفية لرسوم الأشخاص الموجودين بالصورة ، في حين أن صور جامع دمشق خالية من الآدميين . وقليل من الفيسفساء الموجودة حالياً في الجامع الأموي يمكن نسبتها إلى عصر « الوليد » وترجع أغلبها إلى الإصلاحات التي قام بها السلطان السلجوقي « ملك شاه » في نهاية القرن الحادي عشر الميلادي .

ويتضح تأثير الفن الساساني في الفن الأموي في العناصر الحيوانية الموجودة في زخارف فيسفساء قصر هشام بالمفجر ، حيث تذكرنا وحدة الأسد المنقوش على فريسته (ش ٣) بنظائره في الفن الساساني .

أما الزخارف الهندسية التي وجدت في ذلك القصر وفي قصر « المنية » ، فتتشابه وحملاتها مع زخارف وجدت في عمائر شيدت في أواخر العصر الروماني وأوائل العصر البيزنطي (ما بين القرنين الرابع والسادس الميلادي) في الأردن وفلسطين .

الزخارف الجصية والنحت على الحجر :

استخدم الفنان في العهد الأموي الجص البارز المنقوش على نطاق واسع في زخرفة القصور ، ولقد ظهرت منه أمثلة كثيرة في قصور « خربة المفجر » و « الخير الغربي » وقصر « المنية » . ويعد أهم هذه النماذج ما عثر عليه في قصر « المفجر » ، وذلك لاحتوائه على عناصر آدمية^(١) (ش ٥) وحيوانية إلى جانب الزخارف الهندسية (ش ٤) والنباتية . ولقد أثار وجود تماثيل الآدميين الموجودة في حنايا الجدران وفي بوابة الحمام تساؤلاً بين العلماء في شرعية هذا العمل الذي تم في أوائل العصر الإسلامي ، وكيف سمح الحكام الأمويون السنيون بمثل هذا العمل . لكن الظاهر أن تحريم التماثيل اقتصر فقط على أماكن العبادة وشواهد القبور حتى لا تذكر المسلمين بأصنام الكعبة ، وبذلك لم يشمل المنع البيوت السكنية . أما استخدام

(١) عثر في قصر الخير الغربي على قطع جصية لأشخاص وطيور ولقد نقب على هذا القصر الأستاذ

« دانيال شلومبرجر Schlumberger في بادية سوريا عام ١٩٣٦ م

الزخارف الحصية في تزيين الجدران فكان أسلوباً معروفاً في بلاد الفرس والعراق ، وأول من استخدمه في إيران هم البارزيون ثم الساسانيون، ونقل العرب هذا الفن عنهم عندما فتحوا بلادهم .

ومن أجمل أمثلة النقش على الحجر واجهة قصر المشتى التي تزين بالزخارف المنقوشة الجميلة ، وقد نقلت الواجهة الحجرية إلى متحف الدولة في برلين^(١) (ش ٩). وتنحصر زخارف هذه الواجهة في إطار أفقي ممتد بطول الواجهة الرئيسية يبلغ ارتفاعه حوالى ستة أمتار . ويحد هذا الإطار إفريز من أعلى ووزرة من أسفل ، ويزخرف كلاهما بنقوش دقيقة . ولقد قسم سطح الإطار إلى مثلثات عددها أربعون بواسطة شريط متعرج ذى زوايا حادة : عشرون مثلثاً قاعدتها من أسفل وعشرون مثلثاً في وضع عكسي . ويتوسط هذه المثلثات زخارف منحوتة على شكل وردة كبيرة يزخرفها نقوش قوامها مراوح نخيلية وأزهار اللوتس . ويزخرف الإفريز المتعرج والإفريزان الأفقيان نقوشاً لنبات الأكانتاس . ويغضى سطح المثلثات زخارف نباتية دقيقة محفورة حفرًا غائرًا . وتتميز المثلثات التي تتجه رؤوسها إلى أعلى بأن زخارفها كاملة بعكس المثلثات الأخرى التي لم تتم زخرفتها . ويمكن تقسيم زخارف الواجهة إلى مجموعتين : الأولى وتشمل زخارف الجهة التي تقع على يسار المدخل ، وتضم صور حيوانات طبيعية وخرافية وأوان تخرج منها فروع نباتية ، كما تظهر طيور بين سيقان نبات العنب . أما المجموعة الثانية التي توجد على يمين المدخل بالجدار الذي يكون إحدى جدران جامع القصر فلا نجد بها رسوم كائنات حية . كما أن تفرعات سيقان العنب الموجودة بها منقوشة بطريقة مجردة . ولقد اهتم الفنان في زخرفة هذا الجزء من الجدار بتغطيته بالنقوش المنحوتة حتى اختفى السطح ، كما بدت الزخارف كالمفرغة ، ولقد ساعد النحت الدقيق الغائر على إعطاء تأثير زخرفي جميل نتج عن ذلك العمق .

ويتضح من دراسة زخارف جدار المشتى وجود عدة عناصر وتأثيرات بيزنطية وهيلينستية وساسانية . فورقة الأكانتاس المسننة كانت مستخدمة في الفن المسيحي

(١) لفت الأستاذ « سترزغوفسكى » Strezygowski نظر الإمبراطور غليوم إلى جمال هذا القصر ،

فطلب من السلطان عبد الحميد إهداء هذه الواجهة فنقلت إلى متحف برلين عام ١٩٠٥ م

في سوريا وتعرف باسم « شوكة اليهود » ، ولقد انتقلت من سوريا إلى مصر في الفن القبطي ، كما يظهر التأثير البيزنطي في الإناء الذي يتفرع منه سيقان نباتية . ومن المعروف أيضاً أن العنب وأوراقه انتشر في الزخارف المسيحية نقلاً عن الفن الهيلنستي . وأول من استخدم المراوح النخيلية وأنصافها . هم الساسانيون ، ولقد اقتبس المسلمون هذه المراوح النخيلية بدون تطوير في أول الأمر ولكنهم حوروا فيها تدريجياً فيما بعد مما نتج عنه ظهور وحدة زخرفية مبتكرة إسلامية الطابع . أما حركة اندماج الأزهار في الفروع النباتية الخارجة منها في تعرج متكرر ، فهو أسلوب مشتق من الفن الساساني . ويعد ذلك الأصل المباشر الذي قام عليه أسلوب الزخرفة العربي الأرابيسك « Arabesque » في القرن الخامس الهجري أي الحادي عشر الميلادي ، والذي يعتمد أسلوبه على اتصال الفروع بالأوراق اتصالاً مستمراً . أما استخدام وحدات الحيوانات المجنحة فهو أسلوب فارسي لم يعرف من قبل في سوريا ، وعندما اقتبسه المسلمون طوروا في طريقة استخدامه فلم يكن له معنى خاص بل صار عنصراً زخرفياً بحتاً .

ولقد وجدت نماذج جميلة من النقوش الحجرية الجميلة في قصر الطوبة ، ويظهر في زخارفه النباتية التأثير الهيلنستي ، كما وجدت أيضاً ألواح من الرخام في قبة الصخرة وجامع دمشق بها زخارف نباتية منقوشة تتشابه مع زخارف قصر المشتى في التصميم والعناصر . ومن الزخارف الإسلامية المبتكرة التي أدخلها الأمويون زخارف كتابية منقوشة على تاج عمود (ش ١٠) وجد في بركة قصر الموقر عام ١٩٥٤ . ويوجد بالنص اسم « عبد الله يزيد » أمير المؤمنين .

التصوير الجداري :

مارس الفنان المسلم نوعين من التصوير : التصوير الجداري ، وتصوير المخطوطات . ويتصل التصوير الجداري اتصالاً وثيقاً بالزخارف المعمارية ، فهو عبارة عن تصاویر بالألوان المائية ترسم على الجدران . ولقد اقتصر زخارفه عادة على الموضوعات التي عرفت في بلاد الشرق الأوسط قبل الإسلام ، مثل تمجيد الملوك أو مناظر الصيد والطرب . . إلخ ، كما استخدمت زخارف الأشكال النباتية

والطيور . ولم يعثر حتى الآن على أى دليل على ممارسة العرب لفن التصوير الجدارى قبل العصر الأموى ، كما أن هذا الأسلوب الزخرفى لم ينتشر فى العصور الإسلامية المتأخرة . واقتصر ظهوره على جدران الحمامات والقاعات الخاصة ، والظاهر أن المصورين فضلوا عليه النوع الآخر من التصوير الذى عرف باسم « تصوير المخطوطات » ، وهو عبارة عن تزيين المخطوطات والكتب التاريخية والعلمية ببعض الصور التوضيحية الملونة . ولقد برع الفنانون المسلمون فى جميع البلاد الإسلامية فى رسم هذه الصور التوضيحية ، وتميز كل بلد بطابع خاص ، وعلى الرغم من عدم قيام مدرسة لتصوير المخطوطات فى العصر الأموى . إلا أن فن التصوير الجدارى ازدهر فى هذا العصر . ووجدت نماذج منه فى قصرى « عمرة » و « الحير الغربى » . وترجع أهمية هذه التصاوير الجدارية إلى وجود عناصر حية بها مما أدهش مؤرخى الفنون حين اكتشافها ، حيث إن الفكرة التى كانت سائدة هى تحريم القرآن الكريم لتصوير الكائنات الحية آدمية أو حيوانية . إلا أنه ثبت بالدراسة أن القرآن لم ينص على تحريم التصوير ، وربما اقتصر المنع على الأحاديث النبوية التى تعد المصدر الثانى لتعاليم الدين الإسلامى ، حيث نسبت للنبي محمد صلى الله عليه وسلم ، بعض الأحاديث التى تنفر من تصوير الكائنات الحية أو عمل تماثيل لها . والظاهر أن هذه المعتقدات بدأ صدورها من رجال الدين الذين جمعوا الحديث فى بداية القرن الثالث الهجرى ، والمعتقد أن فكرة النهى المنسوبة للنبي كان يقصد بها حماية المسلمين فى أوائل عهدهم بالإسلام من الرجوع إلى الوثنية وعبادة الأصنام ، ولما زال خطر الوثنية ورسخت العقائد الإسلامية لم ير الحكام داعياً إلى هذا التحريم .

تعددت الموضوعات ذات العناصر الآدمية والحيوانية والنباتية فى زخارف قصر عمرة ، ويمكن تقسيم هذه الموضوعات إلى مجموعتين : الزخارف الموجودة فى قبة القاعة الساخنة الملحقة بالحمام والجدران وتضم صوراً من الحياة اليومية (ش ١١) ، والزخارف الموجودة فى قاعة الاستقبال التى فى القصر وتظهر بها صورة الخليفة . وتشتمل زخارف المجموعة الأولى على راقصات ونساء شبه عاريات ووحدات من مناظر الصيد ، ورسوم رمزية لآلهة الإغريق . كذلك تشتمل الزخارف على

رسوم تصور مراحل العمر المختلفة (الفتوة - الرجولة - الكهولة) ، كما توجد بها رسوم لطيور وحيوانات وزخارف نباتية ، ورسم يوضح دائرة الفلك التي يظهر بها بعض النجوم والأبراج ، ويظهر من دراسة عناصر هذه الصور التأثير بالفن الإغريقي والرومانى المسيحى ، بالإضافة إلى بعض عناصر من الفن الساسانى . ويلاحظ أن عناصر هذه الزخارف الموضوعة داخل مناطق معينة ، قد نفذت بأسلوب هيلينستى .

وترجع أهمية قصير عمرة إلى رسوم المجموعة الثانية التي تظهر بها صورة صاحب القصر وتتكون من صورتين . الأولى موجودة في صدر حنية قاعة الاستقبال ، تصور الخليفة جالساً على عرشه يحف به شخصان واقفان وتحيط برأسه هالة ، كما تعلو رأسه مظلة محمولة على عمودين حلزوين ، وصف من الطيور الصغيرة ، ويتضح من تكوين هذه الصورة الأصول الساسانية التي وجدت منقوشة على الأطباق الساسانية الفضية . كما تظهر بالجدار أيضاً نساء شبه عاريات (ش ١٢) .

أما الصورة الثانية المرسومة على جدران القاعة فتصور ستة أشخاص مرتدين ملابس فاخرة واقفين في صفين في وضع المواجهة (ش ١٢ ا) ، رافعين أيديهم مع اتجاه الكف إلى الأمام . وتعد هذه الصورة التي اشتهرت باسم «أعداء الإسلام» أكثر أهمية ، وذلك لوجود شخصيات تاريخية بها . ولقد أثارت هذه الصورة جدلاً بين الباحثين للتعرف على أصحابها^(١) . فرجح الأستاذ «فون برخن» من الكتابات الموجودة فوق رؤوس الأشخاص أن الصف الأمامى يوجد به ملوك إمبراطوريات كبيرة (إمبراطور بيزنطة وملك الفرس ورودريك آخر ملوك القوطيين في أسبانيا) بينما يقف بالصف الخلفى إمبراطور الصين وحاكم السند وملك الحبشة . ويلاحظ في تكوين هذه الصورة الأسلوب الساسانى ، كما أن طريقة وقوف الأشخاص في وضع المواجهة مع رفع اليد المفتوحة كفها إلى الأمام هى أسلوب ساسانى أيضاً وكانت تعبر عن شارة الخضوع عند الساسانيين . وتغطي التصاوير الجدارية الأرضيات في أحد قصور الحير وهو قصر (الحير الغربى) الذى اكتشف عام ١٩٣٠ م . وقد قام بهذا الكشف الأستاذ «دانيل

(١) توصل الأستاذ فون برجن Von Berchen وأرنست مرزفيلد وأوليج جرابار من معرفة معنى هذه

الصورة كتاب . إتنهاوزن ، مقابلة ص ٣٠ .

شلومبرجر » . ويقع هذا القصر على الطريق الذى يصل بين دمشق وتدمر . وترجع نسبته إلى عصر هشام بن عبد الملك ^(١) أى ربما شيد حوالى عام ١١٠ هـ (٧٢٨ - ٧٢٩ م) . ويلاحظ فى زخارف هذا القصر أن الإفريسكو قد حل محل الفسيفساء فى كسوة الأرضيات . ولقد استخدم الأمويون أساليب كثيرة لرصف أرضية مبانيهم . فى الأماكن المفتوحة كانت تغطى بالبلاط الحجرى ، وفى غرفة النوم استخدموا قطع الحجارة المخلوطة بالحير والرماد ، أما بقية الحجرات فكسيت بالفسيفساء .

ويظهر فى إحدى هذه التصاوير الجدارية التى نقلت إلى متحف دمشق ، رسم يصور آلهة الأرض فى وضع نصفى داخل دائرة ، وتحيط بهذه الدائرة عناصر زخرفية لغريقية مثل أوراق العنب والحيوان الآدمى الذى عرف عند الإغريق باسم « السناور » . كما نرى فى صورة أخرى فارساً يطارد الحيوانات بسهامه ويرتدى ملابس ثمينة وحزاماً ذا أهداب طائرة يتدلى منه جراب السهام (ش ١٣) . ويذكرنا هذا الفارس بملوك الساسان المنقوشين على الأطباق الفضية . وبما يؤكد التأثير الساسانى رسم العازفتين الموجودتين بأعلى الصورة التى وجد نماذج لها أيضاً على الأطباق الساسانية . ويلاحظ أن طريقة رسم صور قصر الحير هو تحديد العناصر باللون الأسود . ويظهر فى تصاوير هذا القصر التقاء التيارات المختلفة . فبجانب التأثير الإغريقى الكلاسيكى يظهر انطباع الفنان بأساليب الفن الساسانى .

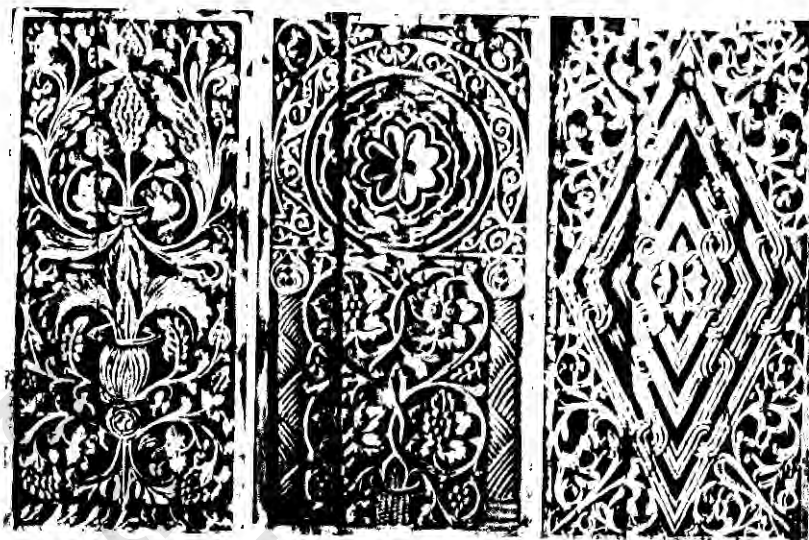
الفنون الصغيرة :

لم نعر من العصر الأموى إلا على القليل من الصناعات الدقيقة ، وبالرغم من قلة هذه القطع ، إلا أن دراستها تشير إلى تقدم فن الصناعات الدقيقة فى ذلك العصر المبكر .

الحفر على الخشب :

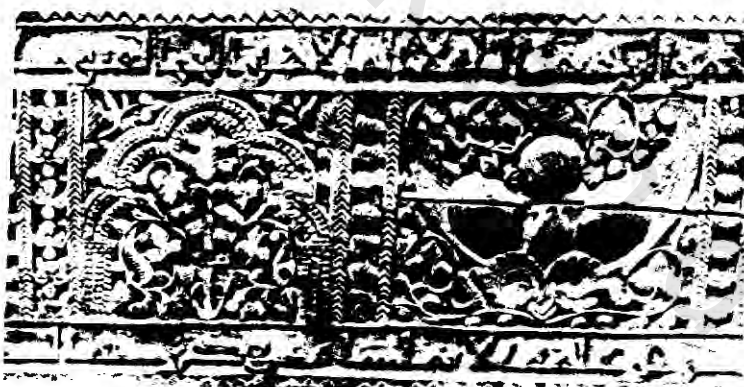
احتفظت صناعة النحت على الخشب فى العصر الأموى بالأساليب الفنية

(١) عثر على اسم الخليفة هشام منقوشاً على جدار بقصر الحير الشرق



(شكل ١٤)

ثلاثة ألواح خشبية منقوشة* ، عثر عليها في المسجد الأقصى بالقدس ،
المصر الأموي .



(شكل ١٥)

لوح من الخشب من صناعة مصر
في العصر الأموي ، أوائل ٨٢ -
٨٨ م ، حالياً بمتحف الآثار الإسلامية
بالقاهرة .



(شكل ١٦)

إبريق من النحاس وجد في مصر في
منطقة الفيوم ، ٨٢ - ٨٨ م ،
حالياً بمتحف الآثار الإسلامية
بالقاهرة .



(شكل ١٢)

سوير جداری - قصر عمره .
(شكل ١٢) أعداء الإسلام
العصر الأموي

(شكل ١٣)

ر جداری ، قصر الحير الغربي ،
الثاني الهجري ، ٨٠ م ؛ العصر
في سوريا ، حالياً بالمتحف
بدمشق .



التي كانت معروفة من قبل في سوريا ، كما نلاحظ أن الزخارف على الخشب ما زالت عناصرها متأثرة بالفنون السابقة على الإسلام لا سيما الهيلينستية والساسانية . وأحسن مثل على ذلك ألواح الخشب التي عثر عليها في المسجد الأقصى بالقدس (ش ١٤) . وتضم زخارف حشوات هذه الألواح وحدات من أوراق الأكانتاس وتفريعات العنب . كذلك نرى بها أشكال السلال التي تخرج منها الفروع النباتية ، ويشابه طريقة تجميع هذه الوحدات ذات الأصول المتنوعة في عمل فني واحد ، الأسلوب الذي اتبع في زخارف الفسيفساء بقبة الصخرة وفي الزخارف المنحوتة على الحجر في قصر المشتى . ولقد عثر على أمثلة من نحت الخشب الأموي في العراق ومصر . ومن أحسن الأمثلة على ذلك لوح خشبي بالمتحف الإسلامي بمصر يرجع إلى أوائل القرن الثامن الميلادي وتظهر به عناصر من الزخارف الساسانية (ش ١٥) .

المعادن :

لم يعثر على الكثير من القطع المعدنية التي يمكن نسبتها إلى العصر الأموي . ومن القطع القليلة التي تؤكد بصفة قاطعة نسبتها إلى ذلك العصر عدد من الأباريق البرونزية موزعة على المتاحف العالمية ، ويحتفظ متحف الآثار الإسلامية بالقاهرة بأحد هذه الأباريق (ش ١٦) .

يتميز هذا الإبريق بجسم كروي ورقبة أسطوانية ومقبض طويل ، أما صنبوره فشكل في صورة ديك يصيح . وتزخرف جسم الإبريق نقوش محفورة قوامها دوائر وبداخلها وريدات ، كما أن نهاية رقبته تزيينها زخارف مفرغة من أشجار النخيل ، ويزين المقبض زخارف منقوشة بتفريعات نباتية وثمار الرمان . ويلاحظ في شكل هذا الإناء وزخارفه مدى تأثير الفن الإسلامي في أوائل عهده بالفن الساساني .

بالرغم من أن بعض المصادر التاريخية قد ذكرت أن الخليفة وليد الثاني كان يقتنى عقوداً بعدد أيام السنة^(١) . إلا أنه لم يعثر حتى الآن على حلى يمكن نسبتها إلى هذا العهد .

نستخلص من دراسة ما سبق أن الفن الإسلامي بدأ نشأته في أوائل حكم بني

أمية في النصف الثاني من القرن الأول الهجري . وكان اهتمام حكام هذه الدولة بكافة فروع الفنون أول محاولة في العصر الإسلامي للوصول إلى طراز فني جديد التقت فيه تأثيرات فنية مختلفة وأطلق عليه الفن الإسلامي . فالعصر الأموي هو الفترة التي ظهرت فيها أولى المدارس الفنية الإسلامية التي عرفت باسم المدرسة الأموية . وبعد الفن الأموي فنناً مركباً استمد عناصره المختلفة من الفنون التي كانت سائدة في البلاد التي فتحها الإسلام في منطقة الشرق الأوسط . فالهندسة الأموية المعمارية دينية كانت أو مدنية مشتقة أصولها من الهندسة الرومانية والبيزنطية والفارسية . ولقد جمع الأمويون بين عناصر هذه الفنون المختلفة وأساليبيها ووضعوها في قالب الذي يلائمهم في عمل واحد . كما استمد الفن في ذلك العصر الكثير من الزخارف المعمارية التي عرفت في فنون ما قبل الإسلام . ونقل ما كان منفذاً في زخارف الفسيفساء إلى ميادين رخامات جديدة كالنقش على الحجر . ويلاحظ أنهم لم يكتفوا بالاقتراس من الأساليب الهلنستية والبيزنطية والساسانية ، بل حوروها في بعضها وأضافوا إليها ما يتفق مع ثقافتهم ، ونتج عن هذا الجمع والتحوير والإضافة فن جديد يختلف عما اشتق عنه من الفنون . ونجح الأمويون في فرض خصائص مدرستهم الفنية الجديدة على سائر الأقاليم الإسلامية التابعة لهم ، وإليهم يرجع الفضل في وضع أسس العمارة الإسلامية والفن الإسلامي الذي لم يتجاوز إلا بعد مرور قرنين من ظهور الدين الإسلامي . وهذه الفترة أهمية خاصة في دراسة الفن الإسلامي ، ويسمىها كثير من الباحثين بالمرحلة الانتقالية من فنون ما قبل الإسلام إلى الفن الإسلامي .